مجلة العلوم الإنسانية —— عدد 49جوان2018 ، المجلد أ،ص. ص 223-233 ——

منصفة العديل بن الفرخ العجلي – مقاربة موضوعاتية

مـــــراد زعبـــاط
كلية الآداب و اللغات
جامعة الإخوة منتوري
قسنطينة- الجزائـر -

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى دراسة منصفة العُدَيْل بن الفرخ العِجْلِي ورصد السمات التي أعطت لهذه القصيدة خاصة ولشعر المنصفات عامة فرادتها، ثم يحاول أن يكتشف أدبية هذا النص وحصر تيماته وإبراز دورها في تشكيل ملامح النظام الذي يقوم عليه عالم النص.

إن هذا المقال عبارة عن مقاربة موضوعاتية للكشف عن التيمة المحورية التي يدور في فلكها بقية الموضوعات الثانوية، ومحاولة لقراءة التجربة الداخلية التي ينطوي عليها النص.

الكلمات المفتاحية: المنصفة، التيمة، الحرب، الموضوعاتية.

Résume :

La présente étude, basée sur l'approche du thème, et qui aborde le poème dit d'équité du poète Alodail Ibn Alfarkh Alajli, a pour objectif, d'une part, de mettre en lumière les caractéristiques de ce poème qui font de lui et de son genre une singularité. D'autre part, elle essaye de découvrir la littérarité de ce texte exceptionnel et de mettre en relief ses thèmes ainsi que son rôle dans la constitution des aspects du système sur lequel repose la structure du texte. Nous avons également mis en avant les images et les éléments récurrents dans le texte afin de retrouver le thème principal autour duquel tournent le reste des thèmes secondaires.

Enfin, nous avons essayé d'analyser l'expérience vécue interne que renferme le texte.

مقدّمة:

يهدف المقال إلى دراسة منصفة العديل بن الفرخ العجلي من أجل رصد السمات الموضوعاتية التي أعطت لهذه القصيدة فرادتها، مع الكشف عن أدبية هذه النصوص المتميزة من خلال معرفة أهمية تيمات النص في تشكيل ملامح الشعرية في هذه القصيدة، فهي من المنصفات التي توخى فيها الشعراء موقف الحياد في الحكم بين قبيلتهم وبين أعدائها، أو بينهم وبين خصومهم، يصفون فيها الوقائع وصفا يحمل مشاعر الإعجاب بالخصم وشجاعته والأسف والأسى لمقتله، وقد يورد الشاعر هذا الإنصاف مفتخرا بقوة أنداده، أو مادحا معجبا بشجاعتهم، أو معتذرا من فرار مبررا هروبه من أعدائه مشيدا بقوتهم.

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر2018

وقد آثرت المنهج الموضوعاتي لأهميته الكبيرة في دراسة النص الشعري والبحث عن التيمات الأساسية ورصد الصور والعناصر المتواترة بكثرة لإبراز التيمة المحورية أو الموضوع الرئيس الذي تدور في فلكه بقية الموضوعات الثانوية، وتحديد الفعل التوليدي بين هذه الموضوعات ضمن شبكة من العلائق التفاعلية والإدماجية التي تشكل جمالية النص الشعري.

دراسة الموضوع:

قبل أن نسلّم بأن "رفض الحرب" هو الموضوع الرئيس ، نُذَكِّر أن هذه القصيدة وشعر المنصفات بصفة عامة يتميز بهذا الموقف؛ حيث يتخذ الشاعر موقف الرفض وينظر إلى الحرب من زاوية المستقبح، وإذا استحضر أحداث الصراع ساوى بين الفريقين في الفعل وردّ الفعل الحربيين، ووصفهما بما يستحقان من كريم الفضائل، ولم يرجح كفّة أحدهما على الآخر وهو توجه كابح يضعه الشاعر بديلا للفخر الذاتي والقبلي الذي يسهم في تأجيج الصراع. والسؤال المطروح لماذا يرفض الشاعر الحرب؟

موضوعاتية رفض الحرب:

لقد تحددت نظرة الشاعر للحرب، وتبلور مفهوم رفض الحرب؛ لأنها أدت إلى فراق المحبوبة وخسارة حليف قوي تربطه آصرة القربى مع قبيلته، بالإضافة إلى تأثير الدين وقضية الجزاء والمصير. ومن خلال هذه المعالم الثلاثة نحاول أن نبدأ دراسة الموضوع الرئيس.

إذا جئنا إلى المستوى المعجمي لقصيدة العديل بن الفرخ العجلي نجد أن مفردات الحرب هي الأكثر تواترا حيث تكررت خمسا وعشرين مرَّة في القصيدة، فإذا أضفنا الضمائر الظاهرة والمستترة التي تحيل إلى موضوعة الحرب ترتفع النسبة، مما يعطي لهذه العائلة اللغوية أهميتها الموضوعاتية وهيمنتها القصوى على الموضوع.

تحتشد مفردات هذه العائلة اللغوية وتأخذ حيزا كبيرا من الأبيات، و يبرز رفض الحرب كمنطلق لشبكة العلاقات الموضوعاتية، فهو الموضوع الرئيس الذي اكتسب موضوعاتية الرفض من تشابكه مع تيمتي الفراق والألم وتواتر مفردات النهي عن الحرب، وتركيز الصور على مآسي الحرب، نلاحظ مثلا،(كفى حزنا، كيف أصبر؟، أصبر، الموت، هامتي، الهام، تألَمُ كبدي، عضّ أكبادهم، شواحج سود، وجدي، ...بفراق، الضلال، جفوتهم، عاديتهم، كمهريق، هل يجمع؟، تذري، تمجّ، نجيع، ضيّعت، لا ترميا، لا تعلمنّ هامتي الحرب، أما ترهبان، ألا ترجوان الله).

كما يشكل هذا التواتر دليلا تعريفيا آخر للموضوع؛ لأنه يمثل صفة جوهرية تومئ إليها جلّ التعريفات التي حاولت تجلية الموضوع. وهو ليس تكرارا بسيطا في رأينا و إنما هو إلحاح من الشاعر على جعله نواة لعمله الأدبي؛ لأن" اهتمام الشاعر بموضوع ما، لا بد وأن يدفعه إلى الدوران في حومة المفردات التي تعبر عنه".[1] كما يرى جون بيار ريشار أن" التكرار أينما كان دليل على الهوس"[2].

إن رفض الحرب هو ما قدمه النص بشكل مباشر، وهو أول محدد لخصوصية هذه القصيدة، وندرك من خلال حركة النص أن الشاعر يرفض الوضع القائم لاعتبارات شخصية أو لمصلحة القبيلة، وهذا الذي صنع التميّز في هذه القصيدة فكانت الصور الغالبة تكشف عن رفض الشاعر للحرب، وهذا ما يبينه المخطط الآتي :

مخطط يمثل تيمة الحرب وتفرعاتها

اغْتَبَــقْنَ مُـــــدامَةً ثَوَتْ حِججاً في رأْسِ ذِي قُنَّةٍ فَرْدِ

والقُنَّة والقُلَّة أعلى الجبل، وحضور الجبل"لم يكن إلاّ للتعبير عن المنعة والحدِّ والنهاية[6] ".

والحاجز والمانع أيضا، لقد صرّح الشاعر بها في بيت آخر يقول فيه[7]:

و كيفَ نُرجّيها وقَدْ حالَ دُونَها نُمَيْرٌ وأجْبَالٌ تعَرَّضْنَ في نَجْدِ؟

الحرب والقرابة :

إن ترسبات هذه التجربة جعلت الشاعر ينفر من الحرب، ويرفضها" والشرّ إذا وقع بين الأقارب كان في عقول ساداتهم أشدَّ تأثيرا، وأبلغ عند الاستعمال به تحذيرا، وإذْ كانت مفاسدهُ النّسيب لنسيبه أفضعَ، وكان التقاطع -حيث يجب التواصل- أشنعَ؛ لأنّ عِزّ السيّد بتابعيه، وليس الأقارب منهم كالأجانب"[8].

وقد ذكر الشاعر أسماء بعض القبائل المضرية، منها: (قيس، عوف، كعب، الرِّباب، عمرو بن أد، دارم من زيد، مناة من تميم)، وأقسم لئن حاربهم فهو كمن يصبّ فضل مائه لسراب رآه فاغترَّ به، ويجزم لئن حاربهم بغيرهم من حلفائه كان كالمرأة التي تضيع بنيها وتجوّعهم لترضع أولاد غيرها، وفي ذلك يقول[9] :

لعمري لئنْ رمتُ الخروجَ عليهمِ بقيسٍ عــلى قيسٍ وعوفٍ على سعْـدِ
وضيَّعتُ عمـــراً والـــرِّبابَ ودارِماً وعـــــمْرَا بنَ أُدٍّ، كيفَ أصبرُ عـنْ أُدِّ
فكنتُ كمُهْرِيقِ الذي في سقــائِهِ لـرقـــراقِ آلٍ فــوقَ رابـــيةٍ صــلْـدِ
كـمرضعةٍ أولادَ أُخـــرى وضيَّعــتْ بني بـطْنِهَا هذا الضَّلالُ عنِ القصْـدِ

إذا تأملنا هذه العائلة من أسماء القبائل نلاحظ غياب أسماء القبائل الربعية التي ينتمي إليها الشاعر، وقد عدَّدَ أسماء القبائل المضرية، فما التفسير الموضوعاتي لهذا الغياب ؟

غيَّب الشاعر أسماء القبائل الربعية عن قصد؛ لأن ذلك أبلغ في التأثير، وأقرب لتحقيق القبول لدى الطرف الثاني، ومحاولة إيصال فكرة أن القتال بين الأقارب عاقبته وخيمة، فلا فرق عند الشاعر بين ربعي ومضري لأنهم من أب واحد.

وقد نقل لنا الشاعر ومضات تصويرية تدعم موقفه وتخفف عنه حِدَّة النقد، والمعارضة التي يمكن أن تثور ضد مسعاه في تحقيق الصلح من جهة، ومن جهة أخرى محاولته التأثير في الآخر، لكي يقبل الصلح ويوقف الحرب الدائرة بينهما:

- فأشار إلى أن كلا الفريقين أبطال كرماء شرفاء جيِّدو التسليح (قروم نزارية تتسامى)، (عليهم مضاعفة من نسج داود والسغد).
- وأقام الحجَّة عليهم لأنهم يقرُّون بالانتماء إلى أب واحد بقوله[10]:

كِـلانا يُنادي يا نزارُ وبينَنا ... قنًا منْ قنا الخطِّيِّ أوْ منْ قنا الهنْدِ

- شبَّه خروج القبيلتين على بعضهما بمن يهرق ماءه في أرض صلدة طمعا في رقراق سراب، أو كالمرضعة التي تغذّي أولاد غيرها وتترك أولادها جياعا.

وقد صوّر الشاعر التساوي في كل شيء بتساوي رماحهم في الطول، وهم كما تقطع السيور على قدر واحد، فيقول: [11]

رماحهمُ في الطُّولِ مثلُ رماحِنا وهمْ مثلُنا قدَّ السُّيورِ منَ الجِلْدِ

إن حضور أعداء الشاعر في القصيدة، أو بالأحرى أبناء عمومته يطغى على جل أبيات القصيدة، وقد أصبغ عليهم من الصفات الإيجابية ما يرتقي إلى درجة المدح، فمن حسن التسليح إلى الحفاظ والبأس والشرف التّليد، والكرم والأحساب والأنساب، وقد ساواهم بقومه في كل شيء فشبههم بالسيور التي تجلي جانب التقايس والعدل. حتى أننا نستغرب أن يكون هذا موقف الشاعر من الحرب رغم أنه" ليس ثمة شعور أعمق جذورا في نفس العربي المتعصب لقبيلته من حقده على القبائل المعادية"[12] لكن لا نجد أثرا لهذا التعصب عند العديل بن الفرخ العجلي، بل نجده يُذَكّرُ أعداءه بروابط الأخوة وبأنهم من أصل واحد.

يوضح المخطط الآتي تفرعات تيمة القرابة وظهوراتها المختلفة:

مخطط يمثل تيمة القرابة وتفرعاتها

في هذا المخطط نلاحظ أن الشاعر يلح على التذكير بوحدة الأصل، فالجد واحد والأب واحد، والخال واحد وقد تواترت مفردات هذه العائلة بشكل يدعم موقف الشاعر الرافض للحرب في محاولة منه للمِّ الشمل، وتحقيق الوحدة وقد مهَّد بالاعتراف بالخطأ وتعصب لبني عمومته وفخر بهم ثم نصح لكلا الفريقين.

الموضوعات الفرعية تمثلت في العائلات اللغوية التي تشكَّلت مفرداتها من النتائج الوخيمة للحرب، فقد خلَّفت الحزن والألم وفرضت على الشاعر سلوك سبيل الإنصاف والأمل في عودة السلم والوحدة.

المواضيع الفرعية:

الفراق[13] : يعيش الشاعر الفراق مع الحبيبة والقطيعة مع أقاربه، وقد تضافرت الحرب والعوائق الطبيعية لتزيد من يأسه في عودة الأمور إلى نصابها، وقد فقدَ الأمل واعترف باستحالة اللقاء عندما قال[14] :

وكيفَ أُرجّيها وقدْ حالَ دونَها نميرٌ وأجبالٌ تعرَّضنَ منْ نجْدِ

وقد أدرك أن الفراق محتَّم بعد وقوع الحرب وأن الأمور لا يمكن أن تعود إلى سابق العهد، فلم يبق له سوى التمني عسى أن تجمع الأيام بينهما، إنه يعلم أن النيَّة في الاجتماع لا تجدي نفعا؛ فقد تحولت الدار من رمز للاستقرار والأمان، ومن حلم يجمع الشاعر بحبيبته، إلى غمد لا يلتقي فيه سيفان، فيقول[15] :

وعلَّ النَّوى في الدَّارِ تَجْمَعُ بيننا وهَلْ يُجْمَعُ السَّيفان ويْحَكِ في غِمْدِ؟

فعزَّ عليه اللقاء من جرَّاء الحرب الدائرة بين القبيلتين.

وقد صرّح بعض الشعراء بذلك، وكشفوا عن التأثير المأساوي لالتقاء موضوعي الحب والحرب، كقول عنترة[16] :

إنّي عَدانِي أَنْ أَزورَكِ فاعْلَمِي ما قَدْ عَلِمتِ وبعضَ ما لمْ تَعْلَمي
حالَتْ رِماحُ بَني بَغيضٍ دونَكُمْ وزوت جوابي الحَرْب مَنْ لم يُجرِمِ

لقد ولَّدَ الفراقُ حزنا عميقا لدى الشاعر، كما سيطرت عليه مشاعر اليأس، فعبَّر عن ألمه ورفضه للحال التي آل إليها، ونحاول الآن دراسة موضوعة الألم.

الألم[17] :

يسيطر الألم على وجدان الشاعر حتى يتمنى أن تصمت الغربان الناعقة لأنها تهيّج أحزانه وتذكّره بالفراق، فإذا صمتت سكَنَ وجده، وتعلّل إلى حين، فحتى الأمنيات ولدت ميتة يتساءل الشاعر في يأس[18] :

وعلَّ النَّوى في الدَّارِ تَجْمَعُ بيننا وهَلْ يُجْمَعُ السَّيفان وَيْحَكِ في غِمْدِ؟

إن اليأس لا يدع له مجالا للحلم بغد أفضل، فيستسلم للحزن، ويرضخ للألم، وقد استعمل صيغ الاستفهام والتوكيد والنهي (كيف نرجّيها؟ كيف أصبر؟ كفى حزنًا، لَتَألمُ.) للتعبير عن اليأس والحزن الذي جرَّته عليه هذه الحرب، فالشاعر يريد أن يشغل الحزن قلب كل ربعي ومضري، وأن يعيشوا مأساته ليكون هذا الحزن عاملا كابحًا لإيقاف الفرقة ولمّ شمل الإخوة الأعداء، لكنه حلم مؤجل ولن يتحقق في حياة الشاعر على الأقل، فقال[19]:

فلا تَعْلَمَنَّ الحَرْبَ في الهَامِ هَامَتِي ولا تَـــــرْمِيا بالنَّبْـــــلِ ويْحَكُـــــمَا بَعْـــــدِي

إنّ الموضوع الرئيس" رفض الحرب" هو انعكاس لالتقاء وتلاقح ثلاثة معانٍ وهي: الحرب والحب والقرابة، وقد أفرز هذا الموضوع بقية الموضوعات الثانوية التي أشرنا إليها، فنكون قد وصلنا إلى محاولة رسم المخطط الشبكي أو الشجري للعلاقات الموضوعية، فالجذر في منصفة العديل تحدده ثلاثة تفريعات جذرية تنهل من معاني الحرب والحب والقرابة، وقد أفرز التقاء هذه المعاني الموضوع الرئيس، الذي تفرع إلى موضوعات ثانوية.

وللتوضيح أكثر نقدم البنية التي تتشابك فيها موضوعات القصيدة:

شبكة العلاقات الموضوعاتية في منصفة العديل بن الفرخ العجلي:

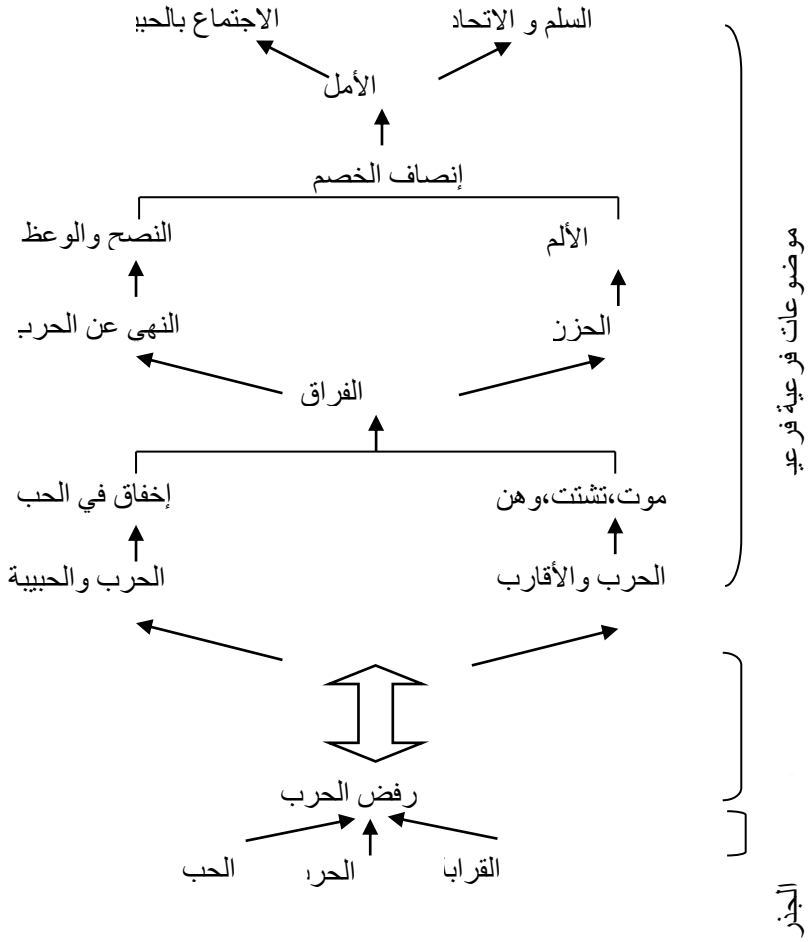

الجذور السيكولوجية لرفض الحرب عند العديل بن الفرخ العجلي:

" من المثير للاهتمام أن نعلم أن وجود نوازع سيئة قوية في الطفولة هو في الغالب الحالة الفعلية لميل لا يمكن أن يخطئ المرء إدراكه نحو الخير لدى الشخص البالغ"[20] ، وهذا ما ينطبق على حياة العديل بن الفرخ العجلي الذي تطالعنا أخباره في الأغاني بأنّ له ثمانية إخوة، وكان لهم ابن عم لهم فتزوج بنت عم لهم بغير أمرهم فغضبوا ورصدوه ليضربوه، فقتل منهم أربعة بمساعدة عبده دابغ ونجا العديل بجرح غائر في الرأس.

وبعد شفائه كمنَ العديل لدابغ في طريق الحج وقتله انتقاما لإخوته، فاستعدى مولى دابغ الحجاج بن يوسف الثقفي على العديل وطالبه بالقوَد فيه، فهرب العديل إلى بلاد الروم، لتبدأ محنة أخرى لشاعرنا، وليعيش حلقة جديدة من عصاب الصدمة[21] بعد الموقف الأول فيقول في خوفه من الحجاج[22] :

أُخـــوَّفُ بالحجّاج حـــــتّى كأنّـــما يُحَرِّك عظمٌ في الفُؤادِ مهـيضُ
ودونَ يدِ الحجّاج من أنِ تنالنـــي بساطٌ بأَيْدِي النّاعِجَاتِ عَرِيضُ
مـهَـــامهُ أشـــباهٌ كـــأَنَّ سَـــــرَابَـهَـا مُلاءٌ بأيدِي اليَعْـــمُلاتِ رَحِـيضُ

فبلغ شعره الحجّاج فأحضره عنوة، فدخل عليه ومدحه فعفا عنه، وكانت هذه المحنة من العوامل التي أثّرت في الشاعر، وتركت أثرها في نفسية العديل وساهمت في بلورة موضوعه الشعري، فموضوع رفض الحرب له جذور سيكولوجية تمتدُّ إلى مجموع الأحداث التي عايشها العُديل.

إن وقوف الشاعر أمام اختبار الموت في مرات عديدة، يفسر خوفه الشديد من تكرار الموقف في قصيدته فيرفض الحرب، و يبدي خوفا شديدا منها، وهذا التكرار هو سبيل لتصريف انفعالات الصدمة الأوليّة التي عانى منها الشاعر عند فقد إخوته وإصابته البليغة في الرأس، لكنّه لا يجني من هذا التكرار سوى المزيد من الآلام[23] . وبما أن" الجذر هو البيئة الداخلية التي ينشأ الموضوع فيها، هو البنية التحتية للموضوع، نواته الأولى، هو الامتداد القصي للموضوع الموغل في أعماق نفسية بهيمة، هو القانون السيكولوجي الذي يحكم الظاهرة الموضوعاتية، وهو النص في ارتباطه بالجهاز النفسي لصاحبه"[24].

ونحاول هنا أن نلج إلى العالم النفسي للعُديل بن الفرخ العجلي لاستجلاء الدلالات الخفية للقصيدة والكشف عن الجذر السيكولوجي الذي غذّى الموضوع في منصفته.

تجليات عقدة الذنب[25] في القصيدة:

بعد المقدمة الغزلية نجد أن أول بيت بدأ به الشاعر، يحمل اعترافا صريحا بممارسته للحرب وقتله إخوانا له من قبائل مضر، فيقول[26]:

ظَلَلْتُ أُساقي الهَمَّ إخْوانِيَ الأُلَى أَبوهُمْ أَبي عندَ الحِفاظِ وفي الجِدِّ

أسرف الشاعر على نفسه وحمّلها تبعات الحرب ونسب لها كل فعل مشين، ونصبها دريئة تتلقى سهام التهمة دون القبيلة فيقول: (ظللت أساقي الهمَّ إخوتي، رُمت الخروج عليهم، ضَيَّعتُ، كنت كمهريق، عاديتُهم، جفوتُهم)، إنها حالة اكتئاب عميقة يعاني منها الشاعر يعززها شعور الإثم والذنب؛ حيث يلوم الشاعر نفسه بشدّة دون تسامح مما يزيد من عمق شعور الكآبة لديه[27] .

إن هذا التغييب الواعي لقبيلة الشاعر وتحمّله لتبعاتها يفسر بأحد أمرين: أما الأول فهو تخفيف تبعات ووطأة الخروج عن الموقف العام للقبائل الربعية؛ الذي يمثله الأخطل أحسن تمثيل، وهو موقف التعصب للقبيلة فلا يُلام إذا أنصف أعداءها.

والأمر الثاني هو الحضور السرّي للموضوع القابل للتعديل على رأي جون بول وبير[28] ، لكن الشاعر يكاد يورده دون تعديلات، فلا نكاد نفرق بين الموضوع وتعديلاته؛ لأن طغيان مفردات القرابة على القصيدة مردّه إلى تعديلات الحادثة الشهيرة التي وقعت في مرحلة مبكرة من عمره، ورغم القرابة البعيدة[29] بين قبيلتي عجل الربعية ونمير المضرية نجد الشاعر يبالغ في وصف مكانتهم وقرب نسبهم: (إخواني، أبوهم أبي، جدّهم جدّي، خالهم خالي).

الحرب إذًا تعديل عن المشاجرة التي مات فيها إخوة العديل(قلّلوا عددهم)، وقبيلة نمير تعديل عن ابن العم الذي قاتلهم فخسروا حليفا (أوهنوا عضدهم)، وحبيبة الشاعر النميرية التي فارقها لنشوب الحرب تعديل عن ابنة العم التي تزوجت دون مشورتهم وقد حالت المشاجرة المشؤومة دون رجوعها.

رهاب الحرب أو الهروب من الذكرى المؤلمة:

لم يركز الشاعر على صورة الحرب، ولم يطل في وصف لحظة الالتحام؛ لأنها صورة مؤلمة ولا تدعو إلى الفخر؛ لأن فيه خسارة لكلا الفريقين؛ فصوارم ربيعة، ومرهفة مضر تقطع السواعد من أعلاها، ولا تترك بقية من قوة القبيلتين؛ فيهرب الشاعر سريعا من الموقف، ويفصح عن حزنه وألمه، فيقول[30]:

كَـــــفى حَزَنًا ألَّا أزالَ أرى القَنَا تَمُجُّ نجيعاً من ذراعي ومن عَضدِي

إذ لا احتمال للحزن والدماء تراق بين القبيلتين، وقد وظّف صورة الدماء النازفة من الذراع والعضد للدلالة على فداحة مصاب الشاعر في كلا الفريقين، وتتكرر الصورة في قول الشاعر[31] :

إذا حَمَـلْـــنَا حَمْلَـة مَثَّلُـــوا لنَا بِمُرْهَفَةٍ تَذْرِي السَـواعِدَ مِنْ صُعُـدِ

فتركيز الشاعر هنا منصبّ على أثر السلاح ووقعه المؤلم على نفسيته، وقد تواترت مفردات وصور دلّت على أثره القاطع، وقد غابت صور الفخر والاحتفاء المعهود بالسلاح؛ فهل يعاني الشاعر من رهاب الحدّة[32] ، لما يحمله من ذكريات أليمة فيلجأ إلى" التجنب أو الإحجام الذي يحدث في حالات الخوف المرضي حيث يتّجه المصاب إلى الابتعاد تماما عن مصدر الخوف رغم عدم ووجود مبرر كاف لذلك"[33] .

وفي استعماله للمرهفة والصّوارم أهمية موضوعاتية كبيرة، بزيادة معدّل الفاعلية، لكن في الاتجاه السلبي؛ أي عكس رغبة الشاعر، ففي اللغة نجد أن الصوارم هي: القاطعة الماضية، وقد قال عمرو بن معد يكرب عندما سئل عن السيف: "عنده تثكل الأمهات"[34]، ويكون انبتات الوسائل وانقطاع الأواخي عند استعمال السيوف؛ لأن الأمر يشتد عنده، والقناع يكشف معه[35] .

ومقابل هذا الهروب من التفصيل في تصوير لحظة الاقتتال، نجده مهتمّا بنوع آخر من العدّة الحربية وهي الدروع، وقد فصَّل القول في نوعها؛ إذ هي مضاعفة من نسج داود، ومضاعفة من نسج العجم، فإذا اشتدَّ وطيس الحرب صارت سرابيل تقيهم بأس بعضهم، فإذا تضمَّن حمل السربال معنى الحماية، فإن نسبته إلى الحديد قد زادت من المنعة التي يوفرها للمتحاربين، ألا يشي هذا التواتر للدروع بأسمائها وصفاتها ونسبتها ومعدنها وظهورها الملفت عند لحظة الالتحام بأمر ما؟

إنّ الشاعر قد وقف يائسا بعد حصول الحرب، ولم يبق له من أمل سوى هذه الدروع لتحمي قومه وأبناء عمومته من بأسهم واحترابهم.

وما يلفت الانتباه أيضا غياب صورة المنتصر في نظر الشاعر، فكلا الفريقين خاسر، ويكفيه حزنا أن يرى هذا السلاح يسفك دماء الفريقين ويفتّ في عضدهما، وقد ساوى الشاعر بين الفريقين في التسليح؛ فكان الفعل القتالي في مستوى رد الفعل عند الفريق الثاني، ولم "يقصد تفضيلاً لأحد الفريقين على الآخر، إما لقصده إلى الإنصاف في اقتصاص ما يجري من الأحوال، وإما لأن الفرقتين كانتا من أصلٍ واحدٍ جعلهما على سواءٍ من البلاء."[36] ، وفيه يقول الشاعر[37]:

إذا حَمَـلْـــنَا حَمْلَـة مَثَّلُـــوا لنَا بِمُرْهَفَةٍ تَذْرِي السَـواعِدَ مِنْ صُعُـدِ
وإنْ نَحْــنُ نَازَلْــنَاهُم بِصَـوَارِمٍ رَدُوا فِي سَرَابِيلِ الحَدِيدِ كَمَا نَـرْدِي

وبالمقابل نجد أن الصورة التي ألحَّ عليها الشاعر وأعلى من مكانتها فقرنها بالشرف هي صورة المقاتلين الأشراف من ربيعة ومضر وهم يلبسون الدروع المضاعفة النسج، في قوله[38] :

قُرومٌ تَسَامَى مِنْ نِزَارٍ عَلَيْهِمُ مُضَاعَفَةٌ من نَسْجِ دَاودَ والصَّغْد

فالشاعر لم يفخر بالسيوف لأنها تقطع السواعد، ولم يفخر بالقنا لأنها تهرق الدِّماء، لكنَّه فضَّل الدروع لأنها تحميه وأبناء عمومته من بأسهم واحترابهم.

الجزاء والمصير وتأثيرهما في موقف الشاعر[39] :

نلاحظ الأثر الديني الواضح الناتج من ترسبات عقدة الشعور بالذنب؛ لارتكابه جريمة القتل، ويبدو أن المنصفة كتبت في مرحلة توبة عن الذنب، وباعتبار القتل من الكبائر في الإسلام نجد هاجس المصير يطفو لا إراديا؛ فيحذّر بني أبيه من تبعات الحرب، وينصح لهم، وهو نوع من التكفير عن الذنب؛ حيث يبدي مخاوفه وهواجسه من المآل والمصير بعد الموت، في محاولة لترهيب المتحاربين من أبناء قومه من النار، وترغيبهم في الجنَّة، فالشاعر هنا لا يطرق جديدا لا يعرفه الآخرون، ولكن صرخته هي محاولة للفت انتباههم للمعاناة التي يعيشها من جرَّب القتل، فينصح لهما قائلا[40] :

فلا تَعْلَمَنَّ الحَـرْبَ في الهَامِ هَامَــتِي ولا تَــرْمِيا بالنَّبْـــلِ ويْحَكُـــمَا بَعْـــدِي

ويقول أيضا[41] :

أما تـــــرهبانِ اللهَ في ابـــنِ أبيكُـــــما ولا تـرجـــوانِ اللهَ فـي جـــنَّةِ الخـلْـــدِ

الخاتمة:

بعد مقاربة قصيدة للعُديل بن الفرخ العجلي تبيّن لي الموضوع المهيمن في القصيدة من الموضوعات الثانوية، مما أتاح لي التوصل إلى تحديد شبكة العلاقات الموضوعية، وقد كان للحدث التاريخي أهمية كبرى في هذه الدراسة، لأن الصراعات القبلية والحروب في العصر الأموي أثّرت في توليد الموضوعات في قصيدة العديل، وقد أعطت الظروف التي وقعت فيها هذه الأحداث، والأطراف المتسببة فيها، وموقف الشاعر منها تميزا لهذه القصيدة عن شعر الحماسة السائد في العصر الأموي.

وإنّ الحب الذي أحالته الحرب إلى فراق محتَّم كان دافعا لرفض الحرب التي ولدَّت الموت والفرقة والضعف، وولدت الحزن والألم أيضا، وهذا ما يفسر رد الفعل النفسي؛ فالشاعر نادم على ما اقترفت يداه ويشعر بعقدة الذنب لتورطه في حرب إخوانه، فهو في مرحلة توبة يحاول أن يكفِّر عن ذنبه بإنصاف أعدائه ودعوتهم للوحدة والسلم.

ولأن" الفن - قبل كل شيء، وحسب المنظور الرومانسي- ليس بناء شكليا؛ بل تأتي أهميته من قدرته على توليد تجربة ما، وإنتاج معنى يؤثر في الحياة. ويتفق جميع النقاد ذوي الاتجاه الموضوعاتي حول هذه النقطة"[42].

فقد كان التميز عند الشاعر في تقديم صورة جديدة للحرب، جلَّت جوانب القبح فيها، وقدمت **رؤيا** جديدة اتسمت بالعمق في معالجة قضية الحرب، وحشد كم كبير من الموضوعات في قصيدة واحدة، ووقوفه موقف الإنصاف وعدم الانحياز للتأثير في طرفي النزاع، وتوظيف الأمثال والحكم، وسلوك سبيل الترهيب والترغيب والوعظ والإرشاد لبلوغ غايته، وإصلاح ذات البين وإيقاف الحرب.

قائمة الهوامش والمراجع:

1- الموضوعية البنيوية دراسة في شعر السياب، عبد الكريم حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ط1، ص33.

2- L'univers imaginaire de Mallarmé, Richard Jean-Pierre, Edition du seuil, Paris, 1961, p25.

3- شرح حماسة أبي تمام، أبو الحجاج يوسف بن سليمان الشنتمرّي، تح، علي المفضل حمودان، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، المجلد1، ص 188.

4- صوت البغل، يستعار للدلالة على صوت الغراب المسن، وكان العرب يتطيرون منه ويسمّونه حاتما لأنّه يحتم الفراق.

5- شرح حماسة أبي تمام، ص 188.

6- فلسفة المكان في الشعر العربي، حبيب مونسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011، ص 65.

7- شرح حماسة أبي تمام، ص 189.

8- شرح ديوان الحماسة لأبي تمّام، المرزوقي، تح: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص520.

9- المصدر نفسه، ص 191، 192، 193.

10- شرح حماسة أبي تمام، الشَّنتمرّي، ص 190.

11- المصدر نفسه، ص 194.

12- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، إحسان النص، دار الفكر ، دمشق، ط1، 1973، ص90.

13- أنظر تفرعات هذه التيمة في المخطط السابق.

14- شرح حماسة أبي تمام، ص189.

15- المصدر نفسه، ص 189.
16-ديوان عنترة، تح: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، 1964، ص220.
17- انظر تفرعات هذه التيمة في المخطط السابق.
18- شرح حماسة أبي تمام، الشَّنتمرِّي، ص 189.
19- المصدر نفسه، ص193.
20- الحب والحرب والحضارة والموت، سيغموند فرويد، تر: عبد المنعم حفني دار الرشاد، القاهرة، ط1، 1992.
21- عصاب الصدمة، Névrose Traumatique، تظهر أعراض هذا العصاب على أثر صدمة انفعالية من جرّاء التعرّض لحادث مهدد، ينظر: المعجم الموسوعي للتحليل النفسي، عبد المنعم الحفني، دار نوبليس، بيروت لبنان، المجلّد الثاني ص127.
22- انظر: الأبيات و أخبار العديل في: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تح: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط2،ج 22، ص 328- 331؛ والكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة،ط3، 1997، ج2، ص 75.
23-انظر: المعجم الموسوعي للتحليل النفسي، عبد المنعم الحفني، ص127.
24- التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، يوسف وغليسي، ص 208.
25- العقدة النفسية هي مجموعة من الانفعالات المكبوتة في النفس، أو التجارب المؤلمة والحوادث التي تنحدر إلى العقل الباطن. انظر: موسوعة شرح المصطلحات النفسية، لطفي الشربيني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2001، ط1، ص 161.
26- شرح حماسة أبي تمام، الشَّنتمرِّي ، ص190.
27- موسوعة شرح المصطلحات النفسية، لطفي الشربيني، ص145.
28- التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، يوسف وغليسي، ص66.
29- يقول الأخطل في البكريين أبناء عمومته:
إذا ما قلتُ قد صالحتُ بَكْراً أَبَى البَغْضاءُ و**النَّسبُ البعيدُ**
البيت في الأغاني،أبو الفرج الأصفهاني، تح: سمير جابر، دار الفكر ، بيروت، ط2، ج8، ص 322.
30- شرح حماسة أبي تمام، الشَّنتمرِّي، ص 191.
31- المصدر نفسه، ص191.
32- رُهاب الحدّة: (الخوف من الآلات الحادّة)، خوف مرضي ممن الآلات الحادّة مثل السكاكين والسيوف والأشياء المدبّبة. انظر: موسوعة شرح المصطلحات النفسية، ص 23.
33- موسوعة شرح المصطلحات النفسية، لطفي الشربيني، ص
34- شرح ديوان الحماسة، أبو علي أحمد المرزوقي ، تح: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 2003 ، ص322.
35- المصدر نفسه: ص 129.
36- المصدر نفسه، ص 521.
37- شرح حماسة أبي تمام، الشنتمرّي، ص191.
38- المصدر نفسه، ص 190.
39- ندرسه من خلال المفردات التالية(الجنَّة، النَّار، ترجوان، ترهبان)
40- شرح حماسة أبي تمام، الشنتمرّي، ص 193.
41- المصدر نفسه، ص 193.
42- مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تر: رضوان ظاظا، علم المعرفة، الكويت، ص98.